١٩- الزفاف

وصلت "ماري" مصر بنهاية شهر ديسمبر، ومعها ولديها "إبراهيم" و"هند"، وقضواالأسبوع الأول في مدينة الأقصر يمرحون في عبقها التاريخي، والتى عرفت بمدينة المائة باب، أو مدينة الشمس، وسابقاً باسم طيبة، وكانت عاصمة مصر في العصر الفرعوني، ومبعث جمالها، كما أنها تحتوى على آثار كثيرة، وهذا يجعلها أكبر مدينة أثرية بالعالم، وقد منحها النيل جمالاً بأن قسّمها إلى شطرين، هما: البر الشرقي والبر الغربي، فتعانقت على ضفتيها الحضارة مع البهاء، فأصبحت المدينة لوحة طبيعية رائعة الحسن.

كان "إبراهيم" شغوفًا بالحضارة المصرية في مدينة "الأقصر"، التي كثيرًا ما قرأ عنها، فزار "مدينة الحياة"، التى بنيت على الضفة الغربية، حيث توجد التماثيل، والمقابر، ووديان الملوك، والملكات، والعديد من المعابد، وبهره "معبد الكرنك"، وروعة "البحيرة المقدسة"، وعبق "مقبرة مينا" موحد القطرين، وجمال "معبد الدير البحرى"، الذي بني بمعرفة الملكة "حتشبسوت".

وتجولت الأسرة بسعادة غامرة بين الآثار الخالدة، وتفقدت المتحف الرائع الذي بنى خصيصاً للملك "رمسيس الثانى"، ومعبد "مدينة هابو"، والذي بنى خصيصاً للملك "رمسيس الثالث"، وكانوا يرجعون إلى المرشد السياحي لمعرفة ما لا يعرفونه، وقد وقفت "هند" أمام تمثال كبير تسأل "إبراهيم":

هند: هذا التمثال ضخم جدًا، وطويل.

إبراهيم: لقد أخبرني المرشد السياحي منذ أمس أن اسمه تمثال "المرمر"، وقال أيضًا أن طوله نحو ١٩,٢ مترًا.

هند: من هو "المرمر" ؟

إبراهيم:هو البقية الباقية من معبد "أمنحتب الثالث" الذي عانى من التصدعات، فسماه الإغريق باسم "المرمر"، نسبة لأحد أبطالهم الذى مات فى حروب طرواده.

كانت مدام "ماري" سعيدة بزيارة مصر، وتتوق لرؤية "غريب"، فالحب النقي في قلبها كان كالنهر يفيض بالغرام العذب، ولكنها مرتبكة، وتخشى أن يتسبب هذا اللقاء في مشاكل للحبيبين، فربما تتعقد المسائل إذا عرفت حبيبته "رجاء" أن له ولدًا من غيرها، وأيضًا لم تعد تستطيع حرمان ابنها من لقاء أبيه، كانت تماطل الصغير تارة، وتسعى للقاء بحرارة تارة أخرى، كأنها معلقة من رأسها تتأرجح بين مشاعرها، وبين مثالية مطلقة من الصعب أن توجد في عالم البشر، تريد الوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسها، بألّا تتصل به مرة أخرى تحت أي ظرف، وترغب في رؤيته.

وبعد نهاية الأسبوع الأول من تواجدها بمصر، غادرت الأقصر، إلى القاهرة تزور أهرامات الجيزة، وكانت تعلم أن قرية "كفر الهوى"على بعد كيلو مترات قليلة من الفندق الذي نزلت فيه، وأخيرًا بعد طول تردد عقدت العزم على الذهاب إلى "غريب" في مساء الخميس الأول من يناير، دون أن تعلم أن هذا اليوم هو نفس الموعد المحدد لِزفافه.

بدأ يوم الخميس بهيجًا في كل أرجاء القرية، ومنذ بداية الصباح في يوم العرس، و"رجاء" تستعد لليلة العمر،وبعد أن هيأت نفسها، ذهبت تجهز أغراضها الخاصة، بأن فتحت شنطة ملابسها ترتبها، وتعطرها بالروائح الزكية، فامتزجت الألوان الرقيقة بسحر العطور الشرقية، يفوح منها أريج الورود، وأغلقتها جيدًا استعدادًا لليلة العمر.

وقبيل الغروب غمرت نفسها، في حمام ماء دافئ حتى تزيل آثار الهموم من فوق عمرها، إلا اللحظات الجميلة، والتي أنارت رحلة حبها الطاهر، وبعد سويعات كانت جاهزة في ثوب العرس كالملاك الذي ينتظر لحظة الطيران، كي تحلق في سماء الحب.

كان "غريب" هو الآخر قد أعد نفسه، وبيته لهذه الليلة الموعودة إعدادًا جيدًا، ففرش شقة الزوجية بأثاث رقيق، وزين الحوائط بألوان بهيجة، ومريحة للعين، وفرش الأرضيات بسجاد منقوش بطريقة بديعة، ورشت أمه العطور فوق كل قطعة من قطع الأثاث، فانتشرت رائحة العطر، وكأن المنزل حديقة من حدائق الربيع، ومع دقات الموسيقى العذبة انطلق موكب العرس نحو عش الزواج الميمون.

وبالتزامن مع قرب انتهاء الزفاف، وعندما هم العريس بحمل عروسه ليصعد بها نحو عش الغرام، وصلت مدام "ماري" و " إبراهيم" و"هند"، إلى بوابة منزل العريس، يسألون عن "غريب"، فأخذهم شاب من الحضور نحو أمه، استقبلتهم الأم "حميدة"، ورحبت بهم على أنهم من المعازيم، ووجدت نفسها تقترب من "إبراهيم" تنظر إليه، وكلها شوق جارف نحوه، وجدت قلبها مشدودًا إليه بقوة، انحنت تقبله بود، وحنان، احتضنته دون أن تدري أنه حفيدها، فقد كان الطفل يحمل ملاح زوجها "نادر"، وعندما وجدت "ماري" أن القلوب قد تعارفت بالفطرة، أخبرتها وهي تمسح على شعر "إبراهيم"، أنه حفيدها، وابن ولدها، فبهتت من المفاجأة، ووضعت يدها على فم "ماري" حتى لا يسمعها أحد، فربما يكدر هذا الخبر صفو هذه الليلة، فيحدث ما لا تحمد عقباه.

أخذتهم "حميدة" بسرعة نحو شقتها بالدور الأرضي، وأغلقت الباب، مخافة أن يصل الخبر إلى "رجاء" أو أهلها، وحتى لا تنغص إتمام ليلة الزفاف في اللحظة الأخيرة، جلست مع مدام "ماري" لتسمع القصة بعيدًا عن آذان الناس.

لم يلحظ أحد شيئًا وسط هذه الزحام الشديد، وانشغل الحضور بقيام "غريب" بحمل عروسته بين يديه، يصعد بها درجات السلم نحو شقته، كانت العروس تضحك بنشوة، وتنظر نحوه بفرحة غامرة، انطلقت الزغاريد تحملهما فوق أوتار البهجة، وتنثر الفرح على أرواح الجميع، حتى غابا عن الأنظار، بعدها انسحب المهنئون إلى شؤونهم، وصعد العريس كي يقطف أحلامه العذراء من فوق ثغر الحبيبة، وعندما دخلا الغرفة، بدأ العرسان التحرر من الملابس الخارجية، وبعدها توقفت رجاء خجلاً، وطلبت من غريب

أن يدير وجهه حتى ترتدي ملابس النوم، فتوارى خلف الستارة حتى تنتهي من استبدال ملابسها، وأخذ يتلصص عليها دون أن تراه، وبمجرد أن خلعت ملابسها، وفتحت شنطتها المغلقة تخرج الملابس الشفافة، قفز نحوها على غرة، ولم يمهلها لارتداء أيّ منها، وغطس معها في بحار الحب الزلال، فذهبا يمرحان، ويرتشفان اللذة من أنهار العسل حتى الصباح.

أشرقت فوق ليلتهم أنوار النعيم، وهبطت آيات الحب تقطر الرحيق من أزهار الجنان، فذاب كلاهما في الآخر، حتى أرهقا المساء، فبعث النور أكاليل الفجر تمسح عنهما العناء، فناما فوق الأمل، مغروسين في بعضهما البعض، يلتحفان وسائد الهناء.

وفي نفس الوقت وبالطابق الأول ظلت "حميدة" طوال الليل تسمع قصة ابنها في رحلة السفر لأول مرة من مدام "ماري"، فكانت تبكي من هول ما لاقاه ولدها من شقاء، أدركت حجم المعاناة التي تكبدها ابنها، ومع نهاية الليلة، كانت قد عرفت كل أسراره، وأن "ماري" مازالت زوجته، ولم يطلقها "غريب" رسمياً، ولم تسع هي للطلاق منه لشدة حبها له، فشعرت بشدة الامتنان نحوها؛ لوفائها للحب من طرف واحد.

كانت "حميدة" تعيش هذه السويعات في قلق شديد؛ خوفًا من غضب"رجاء" عندما تعرف، فمن المؤكد أن هذا الخبر مزعج، أو صادم، وقد تترك المنزل، فبدلا من تتلقى الفتاة هدايا العروس في الصباح، سيقدم لها القدر زوجة آخرى لحبيبها، وابنًا من غيرها، هل تستطيع هذه الرقيقة أن تتحمل مثل هذا الخبر بعد سويعات من زفافها؟ راحت الأفكار المتضاربة تضرب رأس الأم، كل خوفها أن تطلب "رجاء" الطلاق، وتعود إلى منزل أبيها، عندئذ سوف تنهار سمعة ولدها، الجميع سوف ينظرون إلى "غريب" على أنه غشاش، لأنه لم يفصح عن زواجه من أجنبية قبل الزواج من "رجاء".

كانت "حميدة" تعلم جيدا أن "غريب" لن يقوى على فراق "رجاء" ولا يستطيع العيش بدونها إذا صممت على الانفصال، ولذا كادت رأسها أن تنفجر،

وكأن الدم يغلي في نفوخها، كانت بين الفنية والآخرى تذهب لتضع رأسها أسفل الماء البارد، ولكن الماء كان لا يطفئ النار المشتعلة بداخلها.

وقبيل العصر هبط العروسان إلى "حميدة" بالدور الأول ليطمئناها على مرور الليلة الأولي من الزواج بسلام، ودخلا غرفتها، فدُهش غريب عندما شاهد أمه تربط رأسها برباط مبلل بالماء، فهي لا تفعل ذلك إلا إذا كانت مريضة، ودرجة حرارتها عالية، ولكن عندما نظر على الجانب الآخر من الغرفة ووجد "ماري" أرتبك لبرهة، بعدها أدرك الموقف، وعندما جال ببصره على باقي المقاعد لاحظ وجود طفلين يحملان معالم البراءة؛ دق قلبه دقات سريعة، بينما كانت رجاء تبتسم وتقبل أم العريس ثم الطفلين، ثم ماري، وتظنهم من المهنئين، ولكنها عندما أمعنت النظر في وجه "ماري" شعرت بقلق، كان السلام صامتا بدون كلام، حتى قطع الطفلان الصمت وجريا نحوه "غريب" يقبلانه وهو يقف صامتاً:

- هند: أنا هند يا أبي أنا من أنقذتني من الموت في عرض البحر.

- غريب: أنت هند تلك الصغيرة التي أرهقتني في الماء.

- هند: نعم أنا هي، وقد كبرت هكذا.

- بعد أن قبل هند وجد يده تمسح رأس "إبراهيم" وقد شعر بأن شيئًا ما

- يجذبه نحوه، فضمه برفق، وأخذا يقبله، ونظر في عينه قائلا:

- غريب: من أنت؟ يتابني أحساس بأني أعرفك.

- إبراهيم: وأنا ابنك.

- غريب: ابني؟

- إبراهيم: نعم يا أبي، أنا أبنك الذي لم تره منذ أن حملت منك أمي ماري.

أخذ غريب ينظر بدهشة نحو أمه وماري، ثم نظر إلى رجاء متوجسًا، فقد فهم الأمر في لحظة، وعرف أن الصغير هو فلزة كبده، ورغم أن مفاجأة

الأبوة أسعدته، إلا أن مشاعر الخوف كانت تسيطرة على تفكيره، ويخشى أن تتركه "رجاء"، ولذا كان مرتبكًا، وسقط على الأرض مغشيًا عليه، فانحنت عليه "ماري" تبكي وتصرخ وتعلن ندمها على الحضور، الكل يحاول إسعافه.

كان "غريب" يسمع كل ما يدور حوله من أحاديث دون القدرة على الرد، أو المشاركة في الكلام، كانت ماري تهزه حتى يعود للوعي:

ماري: "غريب" ماذا بك ؟ أرجوك أن تفيق، أنا أوفيت بعهدي معك، ولم أتصل بك منذ سفرك، ولم أخبرك بأمر حملي منك، حتى لا تتعلق بي، وتتفرغ لحبيبتك "رجاء" كنت خائفة عليك، ولا أريد أن أنغص حبك الطاهر نحوها، ولولا إلحاح ولدي أن يراك، لقتلت رغبتي الجامحة إلى رؤياك بالصبر، مهما كانت مرارته. (نهض "غريب" ببطء يتحدث بلسان ثقيل)

- غريب: هذا ابني، وهذه هند بنتي (يبكي ويفتح ذراعيه؛ ليضمهما نحو صدره، ثم ينظر نحو "رجاء") حبيبتي لم أكن أعلم بهذا .

- رجاء: (تهبط بجوراهما تبكي) هل لك ابن من امرأة غيري؟

- غريب: لم أكن أعلم؟ لقد قصصت عليكي كل قصتي بالماضي.

- حميدة: كان قدرًا يا ابنتي، ولا يمكن للمرأ أن يفر من قدره.

- ماري: لا تقلقي يا رجاء، سوف أنسحب من حياته.

- غريب: أهدئ لا تحزني يا رجاء.

- حميدة: لا ياولدي أرجوك لا تترك هذه المرأة الوفية تغادر مصر، فهي مازالت زوجتك، وفاؤها نحوك، وحبها الشديد لك لا يقابل إلّا بالوفاء يا ولدي.

- غريب: أعلم مدى نبلها، ولكني أحب رجاء يا أمي.

تحاول رجاء أن تنتصر على غيرتها، وتضغط على جرحها الذي ينزف من شدة الصدمة، تحولت بعيونها نحو "ماري" تتفحص تلك المرأة التي اقتنصت حبيبها بالأمس، تجولت بعيونها ترصد تفاصيل جسدها الممشوق، وحسنها الطاغي، تلك المرأة هي التي غاص بين أرجائها حبيبها بالماضي، شعرت رغمًا عنها بالغيرة.

قرأت "ماري" ما يدور بخاطر غريمتها؛ فلم تقو على مواصلة النظر نحوها؛ وأخفضت رأسها خجلاً ممزوجًا بالألم.

تساقطت دموع "رجاء" وهي تنظر نحو "غريب" فقد كان العرق الغزير يتدفق من رأسه فوق جبينه، حتى اختلط العرق بالدموع، شعرت أنه مقسوماً بين حبه الصادق نحوها، وفكرة مقابلة الوفاء بالوفاء.

تحولت بعيونها تنظر نحو الصغير "إبراهيم"فوجدته يتعلق بأبيه كالغريق يرجو النجاة من الفراق، كان يتشبث بحضن أبيه؛ كي يعوضه سنوات الحرمان، أما الطفلة"هند" فقد كانت شديد الفرح برؤية من أنقذها من الموت، وتقبل رأسه، ويديه، أما الجدة"حميدة" كاد قلبها أن ينفطر من الفرح بحفيدها، والخوف من فكرة الفراق.

لمست"رجاء" في عيونهم جميعاً نظرات مزروعة بالألم، والخوف، والبراءة، والأمل.

أطبق الصمت المروع فوق أرجاء المكان، وغاصت الكلمات في الأراضين السبع، وبعد لحظات قصيرة وثقيلة، ورغم الوجع رسمت "رجاء"وجهها بابتسامة الرضا، أقنعت نفسها في دقائق أن تتقاسم أوقات السعادة مع غريمتها، قررت أن تمنح الحياة للطفل البرئ، والطفلة اليتيمة، فلا يوجد أسمى من التضحية من أجل الطفولة، فقالت لـ"غريب" والدموع تنهمر على خديها:

رجاء: أنا أحبك بعمري يا "غريب"، وأحب من يحبك، ومن أجل ولدك، لا تترك هذه المرأة ترحل، فلتعش معنا، أختاً لي، وزوجة لك، نعم لا تتركها

يا غريب.

إبراهيم: بذلك سيكون لي أمين ماما "ماري" وماما "رجاء".

امتزجت فوق وجه ماري مشاعر الفرح بالتردد ، واقتربت تقبل "رجاء" كانت تشعر بدفء يسري في روحها لم تشعر به من قبل، لقد ذابت غيرة حواء القاتلة من حواء الآخرى، وتحول آدم من سببٍ للنزاع، إلى واحة للتوافق، كانت تلك اللحظات النادرة تموج بطوفان من المشاعر المتداخلة، ربما كانت تلك الحالة مستعصية على التفسير.

شعر "غريب" بالرضا، والعرفان بالفضل نحو حبيبته "رجاء"، وتأكد أنها لن تتركه، فبكرمها الزائد سيعم الحب بين الجميع.

طارت "حميدة" من الفرح، ونهضت من مكانها تطلق الزغاريد، ووراحت تمسك "رجاء" بيد، "ماري" بالآخري، وتضعهم في أيدي "غريب"، وتنحي تحتضن الطفلين بسعادة وحب وتقول:

حميدة: يا ولدي إذا عدلت بينهما في المعاملة سوف تمر الحياه بسلام، فالعدل هو ميزان الدنيا، وبه يسود الرضا بين الجميع، فقد حباك الله بالحب والوفاء، وتلك نعمة لا تجود بها الدنيا إلّا على الأبرار فوق هذه الأرض. (ثم تنظر للمرأتين) سنعيش معًا بالحب، وبالحب الحقيقي سوف تهون كل الصعاب.

تمت بحمد الله

القاهرة في ٢٠١٦/٠١/٢٨